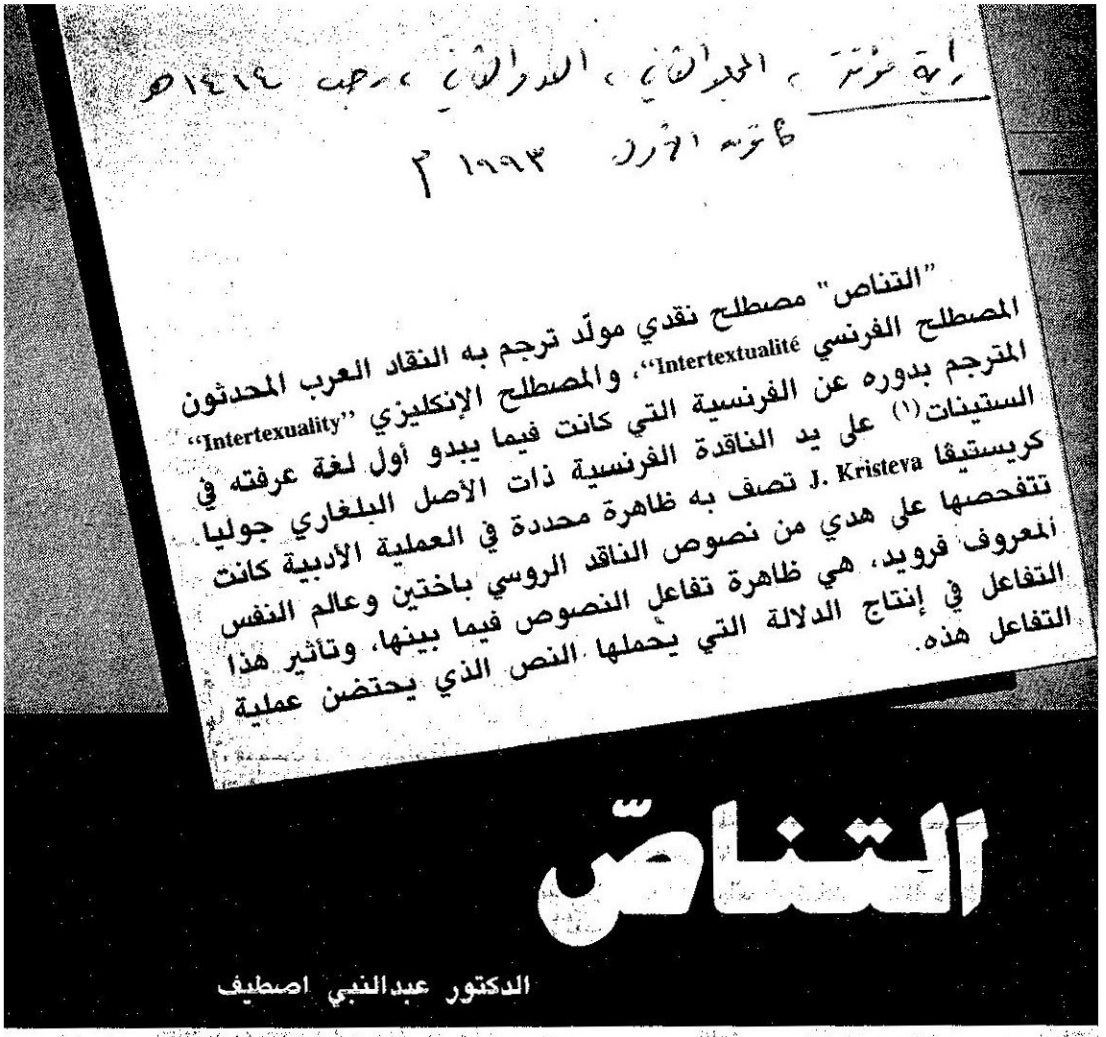

وربما كان من المهم قبل النظر في هذا المصطلح الإشارة إلى أنه على الرغم من حداثة عهد النقد المعاصر به، فإنه في الحقيقة يصف ظاهرة قديمة قدم الكتابة عن الأدب نفسها، أو قدم النقد الأدبي ذاته. وربما كان هذا القدم وراء سوء الفهم الواسع الانتشار له، واختلاطه في أذهان الكثيرين من النقاد المعاصرين (من العرب وسواهم) بمفاهيم أخرى كالتأثير والاقتباس والتضمين والسرقات وغير ذلك من المصطلحات التي تبدو في ظاهرها قريبة الصلة به، ولكنها في جوهرها غاية البعد عنه. فمصطلح التناص يستند إلى أسس معرفية لم تتيسر للنقد الأدبي إلاّ مؤخراً نتيجة التطورات الهائلة التي تحققت لعدد من

* التّناص : ظاهرة قديمة

قدم الكتابة نفسها

العلوم الإنسانية كعلم النفس واللغويات الحديثة وغيرها ـ أسس هي بالتأكيد خارج إطار الإشارة Frame of reference التي يتحرك فيه تفكير أصحاب تلك المصطلحات الذين يتوهمون أنها ربما كانت إرهاصات، أو بدايات، أو مرادفات أو غير ذلك لمصطلح التناص الذي وضعته كريستيفا كما تقدم. والحقيقة أن كريستيفا نفسها غير راضية عن هذا المصطلح بسبب اختلاطة بتلك المصطلحات : وهي تفضل عليه مصطلحاً آخر هو مصطلح النقل أو التحول "Transposition" كما توضح ذلك في كتابها **ثورة اللغة الشعرية** الصادر عام ١٩٧٤. ولكنها وجدته قد شاع شيوعاً كبيراً بعد أن سكّته، فمضت في استخدامها له على الرغم من تحفظاتها عليه.

***

وينطلق مصطلح "التناص" أساساً من مقولة بسيطة جداً هي اننا قراء قبل أن نغدو كتّاباً. فنحن نقرأ ما يتيسر لنا من نصوص في مراحل تكويننا الثقافي المختلفة قبل الشروع في إنشاء نصوصنا الخاصة بنا. وفضلاً عن ذلك فإن قارىء نصوصنا بدوره غالباً ما يكون قد قرأ لتوه نصوصاً أخرى غيرها، ربما سبق لنا أن قرأناها، وربما لم يسبق لنا ذلك قط. ومعنى هذا أن الكتّاب عندما ينشئون النصوص الخاصة بهم ينطلقون في إنشائهم لها من النصوص التي سبق لهم أن تمثلوها فيما انصرم من أيام حياتهم، وهذه النصوص تتجاور وتصطرع وتتزاوج وتتفاعل فيما بينها وينفي البعض منها الآخر في نفوسهم ثم في نصوصهم الجديدة فيما بعد. وعملية تفاعل النصوص هذه لا تقتصر في الواقع على منتجي النصوص الجديدة بل تشمل كذلك مستهلكيها الذين يخضعون في أثناء قراءتهم لأي نص لتجربة تفاعل النصوص هذه، والتي تشكل المهاد الذي تنبني عليه عملية التلقي أو الإستقبال، لأنها هي التي تيسر إنتاج الدلالة أو المعنى الذي ينطوي عليه النص المقروء. وهذا يفضي بنا إلى حقيقة باتت اليوم مسلّمة لا تحتاج إلى كبير نقاش هي أن فكرة النص المستقل، المكتفي بذاته، المنغلق على نفسه، فكرة لا أساس لها لأنها تقوم على وهم. فالنص لم يعد يتألف، كما يذكرنا رولان بارت، من :

"سطر من الكلمات تطلق معنى لاهوتيا أوحدا (هو رسالة المؤلف ـ الإله)، وإنما هو فسحة متعددة الأبعاد تتزاوج وتتصارع فيها كتابات ليس من بينها واحدة أصيلة. إن النص نسيج من المقبوسات، ناشيءعن ألف مصدر ثقافي"(٢).

ومما يعزز هذه النظرة الجديدة إلى النص الطريقة التي تكتب بها اللغة الأم. فالفرد منا يكتسب لغته ويتمكن من نظامها الخاص بها في مستوياته المختلفة (الصوتية، والفونولوجية، والمعجمية، والدلالية، والصرفية، والتركيبية، والانشائية) من خلال الممارسة قبل أن يباشر هذه اللغة وذاك النظام من خلال المدارسة. إنه يكتسب لغته الأم عندما يواجهها نصوصاً يتلقفها في اسرته من أمه وأبيه وإخوته وباقي أفراد أسرته الكبرى، وفي حيّه، وفي مدرسته، وفي عمله، وفي مختلف وجوه حياته الممتدة من المهد إلى اللحد. وهذه النصوص المواجهة، والمستوعبة، يشكّل كل منها ممارسة دلالية متماسكة Coherent Signifying Practice تنتج معنى متوخى بالاعتماد على النظام اللغوي الخاص بتلك اللغة أو ما سماه فرديناند وسوسور بـ :"Langue". وهذا النظام يتنامى بناؤه التدريجي في نفس الفرد ويشكل في نهاية المطاف بنية محددة ينتج من خلالها إنشاءه الخاص به، او كلامه، أي الـ "Parole" في

مصطلح سوسور، ويستطيع بمقدار تمكنه منه أن يفكر باللغة ويعبر ويتواصل مع الآخرين وفع الموروث الثقافي المدون بها. ومعنى هذا أن النظام اللغوي الخاص بلغة ما هو الأساس في عملية تلقي النصوص أو في عملية إرسالها؛ في استهلاكها وفي إنتاجها، في قراءتها أو في كتابتها. ولكنه لا يمارس وظيفته بوصفه نظاماً مجرداً واضحاً محدداً دقيقاً في نفس ممارس اللغة، بقدر ممارسته لوظيفته هذه من خلال صوره التي يتجسد لنا فيها، ويتحول بها من طور الوجود بالقوة إلى طور الوجود بالفعل، أي من خلال النصوص التي يتيسر للمرء الاطلاع عليها، وقراءتها، واستيعابها، وتمثلها، ويتاح له فيما بعد إنتاج نصوص نظيرة لها.

والذي يحدث أن هذه النصوص لا تشكّل المعايير والمقاييس والأعراف التي يستهلك المرء وفقاً لها نصوص الآخرين، وينتج ملتزماً بها نصوصه الخاصة به وحسب، بل تكون كذلك المادة الأولية التي يستخدمها في إنتاجه لنصوصه؛ إنها الحجارة التي يتلقطها هذا الباني الجديد مما اندثر من أبنية من هنا وهناك ويستخدمها في إشادته لبنائه الخاص به وفق المخطط الذي أعدّه في نفسه استناداً إلى تجاربه وخبراته المتراكمة من اطلاعه على الأبنية المشيدة من قبل بطريقة من الطرق.

والحقيقة الأكثر أهمية وحيوية وخطورة في مسألة تفاعل النصوص هي أن النصوص لا تتفاعل بوصفها مجرد نصوص، ولو كانت كذلك لصح النظر إلى تفاعلها على أنه مجرد اقتباس أو تضمين أو تأثر بمصادر معينة يستطيع أن يحددها القارىء المطلع والخبير. ولكنها تتفاعل بوصفها ممارسات دلالية متماسكة. إنها عندما تتجاور وتصطرع وتتزاوج وينفي بعضها البعض الآخر، أو باختصار عندما تتفاعل نصياً، تتفاعل بوصفها "أنظمة علامات متماسكة" Coherent Signs systems لكل منها دلالته الخاصة به، وهذه الأنظمة إذ تلتقي في النص الجديد تسهم متضافرة في خلق نظام ترميزي Code جديد يحمل على عاتقه عبء إنتاج المعنى أو الدلالة في هذا النص. إن هذه النصوص تشترك (بوصفها أنظمة علامات قادرة على إنتاج المعاني والدلالات الخاصة بها) في خلق الفسحة الإنشائية discursive space للنص الجديد ـ هذه الفسحة التي تعبر أساساً عن إمكانات الثقافة التي تنتمي إليها اللغة المستخدمة في كتابة ذاك النص.

من هنا فإن الدراسات التناصية ليست تفحصاً للمصادر والمؤثرات القومية الموروثة أو المعاصرة فهذا من شأن الدراسات الأدبية الخاصة بأدب قومي ما. كما أنها ليست دراسة للمصادر والمؤثرات الأجنبية في النص الأدبي القومي فهذا من شأن الدراسة المقارنة للأدب، أو ما نسميه عادة بالأدب المقارن. إنها تطرح شبكتها، كما يذكر جوناثان كولر، على نحو أوسع تستوعب من خلاله :

"الممارسات الإنشائية المغفلة، والنظم الترميزية ذات الأصول المفقودة التي تجعل الممارسات الدالة للنصوص اللاحقة ممكنة"(٣).

ولنترك على أي حال صاحبة حقبى المصطلح ـ جوليا كريستيفا نفسها ـ تشرح لنا ما تريده بتفاعل النصوص من حيث كونها أنظمة دلالية متماسكة. تقول كريستيفا في كتابها **بنية اللغة الشعرية** :

"يحدّد فرويد، كما نعرف، عمليتين أساسيتين في عمل "اللاشعور" **هما الانزياح displacement والتكثيف condensation** وقد قدمهما كروزفسكي Kruszewski وجاكبسون Jakopson بطريقة مختلفة في أثناء الأطوار

الأولى للغويات البنيوية، من خلال مفهومي الكتابة (أو المجاز المرسل) metonymy والاستعارة metaphor، اللذين فسّرا منذ ذلك الوقت في ضوء التحليل النفسي.

وينبغي أن نضيف إلى هاتين العمليتين عملية ثالثة هي **الانتقال من نظام دلالي إلى نظام دلالي آخر**. وعلى وجه التأكيد، إن هذه العملية تنجم عن المزاوجة بين الانزياح والتكثيف، ولكن هذه المزاوجة لا تشرح عملها الكلي. فهي تنطوي كذلك على تعديل للوضع الأطروحي thetic position، تحطيم الوضع القديم وتشكيل وضع جديد. أن النظام الدلالي الجديد يمكن أن ينتج بالمادة الدلالية نفسها: ففي اللغة على سبيل المثال يتم الانتقال من السرد إلى النص، أو يمكن أن يستعار من مواد دلالية مختلفة، الانتقال من مشهد كرنفالي إلى النص المكتوب مثلا. وبهذه الصلة فإننا نتفحص تشكل نظام دلالي محدد ـ الرواية ـ بوصفه نتيجة لإعادة توزيع نظم علامات عديدة مختلفة، النظام الكرنفالي، الشعر البلاطي Courtly Poetry، الإنشاء المدرسي. إن مصطلح التناص يشير إلى هذا التحول لنظام علامات واحد (أو لعدة انظمة علامات) إلى نظام علامات آخر؛ ولكن ما دام هذا المصطلح قد فهم في الغالب بالمعنى المبتذل لـ "دراسة المصادر" فإننا نفضل مصطلح "التحوّل" transposition لأنه يحدد أن ذلك الانتقال من نظام دلالي معين إلى نظام دلالي آخر، يتطلب الإفصاح عن الاطروحي the thetic ـ عن الوضعية النطاقية والإشارية.

وإذا ما سلم المرء بأن كل ممارسة دالة هي ميدان تحولات لأنظمة دلالية مختلفة (أي تناص) فإنه يستطيع عندها أن يفهم أن "مكان" نطقها و "موضوعها" المشار اليهما لا يكونان أبداً مفردين، وتامين، ومتوحدين مع ذاتيهما. ولكنهما دائما متعددان، مبعثران، وقابلان للجدولة وبهذه الطريقة فإن تعدد المعاني Polysemy يمكن أن ينظر إليه ايضا على أنه نتيجة لتعدد تكافؤ علاماتي Semiotic Polyvalence ـ موالاة "لأنظمة علامات مختلفة"(٤).

حواشي

(١) انظر Michael Worton and Judith Still (eds.), ***Inter textuality : Theories and Practices*** (Manchester University Press, Manchester and New York, 1990), p.2.

(٢) انظر Roland Barthes, ***The Rustle of Language,*** Translated by Richard Howard (Blackwell, Onford, 1986), pp. 52-3.

(٣) انظر Jonathan Culler, ***The Pursuit of Signs : Semiotics, Litera ture,*** Deconstruction (Routledge and Kegan Paul, London, 1981), p. 103.

(٤) انظر Julia Kristeva, ***Revolution In Poetic Language,*** translated by Margret Waller, with an Introduction by Leon S. Roudiez (Columbia University Press, New York, 1984) pp. 59-60.